عبدالملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره

احسان عباس*
الجامعة الاردنية

Abstract

'Abdul-Malik b. Marwān was one of the Medinian scholars before he became a caliph. Mālik in his Muwaṭṭa', recognizes well his and his father's role in this field. Our sources ascribe to him also distinguished activities in the field of literary criticism.

According to Ḥirmāzī. he was the one who started the anthology of the 'Seven Odes', known afterwards as "Mu'allaqat". His epistle to al-Ḥasan of Basra about Qadar (Free-will) and the other one directed to 'Abdallah b. Ibād both reflect broad mindedness and tolerance in dealing with serious problems. This paper tries to clarify these aspects critically in order to pin-point 'Abdul-Malik's role in the cultural life of his age

ملخص

تمنح مصادرنا عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي الخامس مكانة خاصة في المجالات الثقافية، وتنسب اليه جهوداً في ثلاثة ميادين على الاقل وهي: -

١ - الاجتهاد الفقهي قبل الخلافة وأثناءها، وخير معرض لذلك موطأ مالك.
٢ - النقد الادبي، فاليه تنسب المحاولة التي تمخضت من بعد عن المختارات التي سميت ب «المعلقات» كما تروى له آراء وأحكام في النقد.
٣ - حواره مع بعض مفكري عصره، كالحسن البصري وعبدالله بن اباض، في مشكلات طرات على المجتمع الإسلامي.

وهذه الدراسة معالجة حذرة لهذه الجوانب متصلة بعبدالملك، وهب اننا استبعدنا أن يحتل الرجل كل هذه المجالات، فإن اختيار المصادر له وتمييزها لدوره امر لافت للنظر.

قبل سنوات حين كنت أعمل في تحقيق كتاب «طبقات الفقهاء» لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (٣٩٣ - ٤٧٦) استوقفني أن يَعُدَّ الشيرازيُّ عبدالملك بن مروان واحداً من فقهاء التابعين، إذ لم أكن حتى عهدئذ قد وقعت في أي مصدر آخر على أدنى إشارة إلى علاقة عبدالملك بن مروان بالفقه والاجتهاد فيه. ولم أحاول يومئذ أن أستقصي ما يتصل بهذه المقولة، وطوتها الذاكرة في جملة ما تطويه، إلا أنها ظلت تنبعث حية بين حين وآخر، كلما اجتمعت إليها معلومات جديدة ذات صلة بعبد الملك تثيرها من مكمنها.

إن ما ذكره الشيرازي على إيجازه يعدّ هاماً، ويمكن ترتيبه على النحو الآتي:

١ - أن عبدالملك واحد ممن تعتبر أقوالهم في انعقاد الإجماع ويعتدّ بهم في الخلاف[1] من فقهاء التابعين.

---

* استاذ، باحث، الجامعة الاردنية

١. الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، طبقات الفقهاء، تحقيق وتقديم: احسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠، ص٣١

٢ ـ أنه واحد من فقهاء المدينة في عصره (يعني قبل أن يلي الخلافة).
٣ ـ أن بعضهم كان يراه أحد أربعةٍ من فقهاء مدينة الرسول عليه السلام من طبقة التابعين والثلاثة الآخرون هم: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب[٢]
٤ ـ أن عبدالله بن عمر نوّه به وعدّه ممن يعتمد في الفتوى، فقد روى عبادة بن نسي الكندي الأردني قاضي طبرية أنه قيل لابن عمر إنكم معشر أشياخ قريش توشكون أن تتفرقوا (اقرأ: تنقرضوا) فمن نسأل بعدكم فقال: إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه.[٣]
٥ ـ أنه كانت له أقضية مشهورة متداولة وخاصة لدى الشاميين، حتى كان رجاء بن حيوة إذا سئل مسألة يقول: قضى عبدالملك فيها بكذا وكذا.[٤]

وليس بمستغرب أن يكون عبدالملك ذا حظّ كبير في الفقه، فقد أتاحت له بيئة المدينة لقاء عدد من الصحابة مثل جابر بن عبدالله وأبي هريرة وأم سلمة وغيرهم، وفي المدينة جالس الفقهاء وحفظ عنهم وروى الحديث، وكانت ملازمته للقرآن الكريم تفتح امام عينيه آفاق الاستنباط والاجتهاد، فقد شهد له نافع أنه ما رأى بالمدينة أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله منه، او قال: ولا أطول صلاة ولا أطلب للعلم.[٥] ولشدة إقباله على العبادة والنسك كان يلقب «حمامة المسجد».[٦] على هذا النحو من التوجه فانه من الطبيعي أن يصبح عبدالملك أحد الفقهاء القراء في عصره، ولكن هذه الأخبار كلها عن تفوقه في هذه الناحية تبقى ظلاً لحقيقة إن لم تقرن بالأدلة المؤيدة لها، فأين هي الشواهد التي تثبت تلك الحقيقة على نحو عملي؟

هنا يتجه التقدير إلى أنّ الدور الفقهي الذي قام به عبدالملك لا بد وأن يكّون جزءاً مما يسمّى اجتهادات أهل المدينة، وخير ما يمثّل تلك الاجتهادات المذهب المالكي نفسه لأنه في المدينة نشأ وتبلور. وعلى هذا فإن «الموطأ» قد يكون خير صورة للنشاط الفقهي في المدينة أثناء القرن الأول. وعند الرجوع إليه نجد أن مالكا لم يحتفظ ببعض فتاوى عبدالملك وحسب بل إنه احتفظ ببعض اجتهادات أبيه مروان، من ذلك قضاء مروان بان العبد إذا أصيب بجراح كان على من جرحه أن يدفع مقدار ما نقص من ثمنه، وبهذا الرأي يأخذ مالك نفسه، وكيفية ذلك عند مالك أن ينظر في امر العبد بعد أن يصح ويبرأ من جراحه، ويقدر الفرق بين قيمته حين كان صحيحاً وقيمته بعد أن أصيب بتلك الجراح ويغرم الذي اصابه فرق ما بين القيمتين[٧]

وقد تأثر عبدالملك بمرويات أبيه وبأقضيته إذ كان مروان مصدراً هاماً لما ثقفه ابنه في النشأة الأولى. وعند البحث عن أقضية عبدالملك في «الموطأ» وجدت منها ثلاثة: يبدو في الأولى منها مدى تأثير أبيه في أحكامه، فقد وهب عبدالملك جارية لصاحب له ثم سأله عنها فذكر أنه همّ أن يهبها لابنه ثم عدل عن ذلك، فقال له عبدالملك: لَمَروان كان أورعَ منك، وهب لابنه جارية ثم قال،: لا تقربها فاني قد رأيت ساقها منكشفة.[٨] أما القضيتان الأخريان فاحداهما أنّ عبدالملك قضى في امرأة أصيبت مستكرهةً بصداقها على من فعل ذلك[٩] وقد أخذ مالك بهذا الرأي في الحرة ـ دون الأمة ـ بكراً كانت أو ثيباً، والثانية أنّ

---

٢. الشيرازي، طبقات، ص٦٢، ٦٣، وابن حجرالعسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، ١٢ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٦، ص٤٢٢.
٣. الشيرازي، طبقات، ص ٦٣.
٤. الشيرازي، طبقات، ص ٧٥.
٥. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٦، ص٤٢٢.
٦. ابن عبد ربه، ابو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، العقد الفريد، ٦ج، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٩، ج٦، ص. ٣٥٠ ـ ٣٥١.
٧. مالك بن انس، الموطأ، شرح وتعليق: أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت ١٩٨٠، ص٦٢١ .
٨. مالك بن انس، الموطأ، ص ٣٦٧.
٩. مالك بن انس، الموطأ، ص٥٢١ (والأمة على المغتصب ما نقص من ثمنها).

عبدالملك أقاد وليّ رجل من رجل قتله بعصا فقتله وليّه بعصا.[10]

وتدل هذه الأقضية بطبيعتها، وخاصة الحكمين الثاني والثالث منها، على أنها صدرت عن عبدالملك بعد نيله الخلافة، وهذا يعني أنّ ثقة الامام مالك في فقه عبدالملك لم تتزعزع بعد الفترة المدنية من حياته، ولعلّ هذه الثقة هي التي فسحت لعبدالملك مكاناً ضئيلاً بين الفقهاء حتى احتفظ الشيرازي باسمه فيهم. ومما يعزّز هذه الصورة اهتمام عبدالملك بالمظالم إذ يروي الماوردي أنّ عبدالملك كان أول من أفرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر، فكان إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ ردّه إلى قاضيه أبي إدريس الأودي فنفذ فيه أحكامه.[11] ولكن قبل الشيرازي بكثير كانت صورة عبدالملك قد تحولت تحولاً كبيراً في النفوس، وأصبح الفتى الذي كان حمامة المسجد ذات يوم صقرا جارحا خاض معارك طويلة في سبيل الخلافة.

وقد عبّرت الروايات المختلفة عن التباين الصارخ في المرحلتين من حياة عبدالملك بطرق مختلفة فقيل إنه بعد أن كان رفيقا للقرآن ودّع صحبته، وروي عنه أنه قال في معرض التغير الحاسم الذي أصاب حياته: «لقد كنت أمشي في الزرع فأتقي الجندب أن أقتله، وإن الحجاج اليوم ليكتب إليّ بقتل فئام من الناس فما أحفل بذلك»[12]ونسب إليه شرب الطلاء بعد أن أفضت إليه الخلافة وأن سعيد بن المسيب قال له: بلغني يا أمير المؤمنين انك شربت بعدي الطلاء فقال: أي والله والدماء.[13] إلى غير ذلك من روايات كلها تدور حول محور واحد لتصوّر مدى الانتكاس الذي أصيب به. وهي روايات تعبّر عن رأي طائفتين من الناس: طائفة الأتقياء الذين تملأ نفوسهم الحسرة على من ينتقل من دائرة التقوى إلى حيز التشبث بأمور الدنيا والصراع عليها، وطائفة المعادين والكارهين الذين يسرهم أن تشوه صورة من يعادونه.

لا ريب في أنّ حياة عبدالملك قد خضعت لتغيرات كثيرة، بعد إذ أصبح مسؤولاً عن دولة واسعة الأطراف، وعن تطبيق أحكام الشريعة فيها، فانتقل الفتى الذي كان يرجو الخلاص الذاتي لنفسه عن طريق النسك والعبادة إلى موجه مسؤول أمام رعيته وأمام الله عن صلاح أمة بكاملها، فلم يمت لديه شخص العابد وإن قلّت الساعات المخصصة للعبادة، ولم يختف دور الفقيه المشرّع الذي تحتاج الأمة إلى اجتهاده، ولم يقلّ اهتمام الرجل المثقف بشتى فروع المعرفة المكنة حينئذ بعد إذ أصبح يستطيع من موقع المسؤولية أن يكون ذا دور أكبر في توجيهها.

ففي باب الاجتهاد الفقهي مثلاً لا أظنّ أن جهده توقف عند ما أورده له الإمام مالك في موطأه، ولكنّ قلة أقضيته المستشهد بها ثم اختفاؤها جملة يرجع إلى أسباب مختلفة، فقلّتها عند مالك سببها أن مالكا يستشهد بما روى عن الصحابة والتابعين وهم كثر، فلا سبيل إلى أن يمنح عبدالملك حيزاً يطغى على كل أولئك جميعاً، وأما اختفاؤها بعد مالك فسببه من جهة تضاؤل قيمة الرواية الشامية بعد ذهاب الدولة الأموية، ثم تبلور المذاهب على أيدي أئمة مجتهديـــن من الامصار الأخرى أمثال أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والشافعي وأحمد بن حنبل وتلامذتهم من جهة أخرى. وإننا لنحسّ شيئاً من التنكر للرواية الشامية في قول أحدهم وهو يتحدث عن رجاء بن حيوة: «ما لقيت شاميا أفقه (أو أفضل) من رجاء بن حيوة إلا أنه إذا حركته وجدته شامياً».[14] وقد وجه اللوم إلى البخاري لأنه خرّج حديث مروان ابن الحكم،[15] وقد كان الزمن لدى ذلك اللائم قد تجاوز ما لدى مالك من تسامح وسعة صدر، فقد أخرج

١٠. مالك بن انس، الموطأ، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩.

١١. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت. ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٠، ص٧٨.

١٢. ابن عبدالبر النمري (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، بهجة المجالس وانس المجالس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (د. ت)، ج١، ص٣٤٠.

١٣. ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٦، ص ٣٥١.

١٤. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص٢٦٦.

١٥. ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١٠، ص٩٢.

مالك في موطأه عدداً من الاقضية لمروان نفسه[١٦]

ومما يطمئن إلى أن التغير الذي عاناه عبدالملك في حياته إنما أصاب الكمَّ لا الكيف خصائص هامة في نظرته الأخلاقية إلى الناس والأشياء، وأخصُّ بالذكر منها صفة «الموضوعية» ـ فقد كان الرجل منصفاً حتى في الحكم على الذين حملوا السلاح ضده. فمن أمثلة ذلك أن بعضهم تنقّص في مجلسه مصعب بن الزبير وقال إنه كان شريباً فقال عبدالملك: اسكت لا أم لك، فلو علم مصعب أن شرب الماء ينقص من مروءته ما شربه[١٧] (هذا قول رجل اتهم هو نفسه بشرب الطلاء، ولم يكن أقلّ من مصعب حرصاً على مروءته). وكتب إليه ابان بن عثمان وكان واليه على المدينة يقول: «إن عبدالله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية فما يرى أمير المؤمنين فيها، أمضيها أم أردّها؟ فكتب إليه عبدالملك: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فاذا أتاك كتابي هذا فأنفذ أقضيته فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر».[١٨]

ـ ٢ ـ

تلك صورة تتناول الجانب الفقهي. ولكن اهتمام عبدالملك قبل الخلافة وأثناءها، كان أشمل من ذلك، وهنا نعود إلى الاستئناس بشهادات معاصريه، يقول مالك بن عمارة اللخمي: «كنت أجالس في ظلّ الكعبة أيام الموسم عبدالملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير وكنا نخوض في الفقه مرة وفي الذكر مرة وفي أشعار العرب وآثار الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد منهم ما أجده عند عبدالملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم والفصاحة والبلاغة، وحسن استماعه إذا حُدِّث، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث».[١٩] ويقول عامر الشعبي: «ما جالست أحداً إلاّ وجدت لي الفضل عليه إلا عبدالملك فاني ما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني فيه».[٢٠]

وقد يؤخذ على هاتين الشهادتين ما يعتور الدلالة فيهما من غموض وتعميم، فما الذي يعنيه مالك بن عمارة بالذكر وفنون العلم، وهل يعني بقوله: «وآثار الناس» ناحية الأخبار؟ إنه إن عنى ذلك فليس لدينا شواهد تبين مدى تميز عبدالملك في هذا الجانب. وماذا يعني الشعبي بقوله «ما ذاكرته حديثاً»؟ هل الحديث هنا يعني أيضاً الخبر أو يعني أحاديث الرسول؟ المرجح أنه يعني الخبر لأنه قد صحت الرواية أن عبدالملك كان قليلَ الحديث، فهما تصوّران عبدالملك مرّة واسع الاطلاع بالنسبة لبعض فقهاء عصره، ومرة بالنسبة للشعبي. ومع ذلك فيمكن الاطمئنان إليهما في شأن سعة معرفته بالشعر. ومما يؤكد ذلك أن الروايات الأدبية اختارت عبدالملك دون سواه محوراً لنشاط أدبي نقديّ واسع، وذلك الاختيار ذو دلالة مميزة. وقد ركزت تلك الروايات على ناحيتين، الأولى: صلة عبدالملك بالقصائد السبع الطوال، وثانيتهما مجالسه الأدبية النقدية:

١ ـ صلة عبدالملك بالقصائد السبع الطوال:

في إحدى روايتين للحسن بن علي الحرمازي عن غير واحد من العلماء أن السبع القصائد انما سبّعها

١٦. انظر: مثلاً مالك بن انس، الموطأ، ص٣٣٢، حيث جاء ناس من أهل الجار فسألوا مروان بن الحكم عما لفظ البحر قال: ليس به بأس، ثم حولهم إلى زيد بن ثابت وابي هريرة فأفتيا بمثل ما أفتى به مروان.

١٧. الزبير بن بكار (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، الاخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، رئاسة ديوان الاوقاف، بغداد، ١٩٧٢، ص٦٥٠.

١٨. وكيع، محمد بن خلف بن حيان، (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م)، اخبار القضاة، ٣ج، تحقيق: احمد مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٧، ج١، ص١٣٠.

١٩. أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م)، الامتاع والمؤانسة، ٣ج، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٧٠.

عبدالملك بن مروان ولم يكن في الجاهلية من جمعها قط. وكانت القصائد التي اختارها عبدالملك هي:

١ ـ ألا هبي بصحنك فاصبحينا، لعمرو بن كلثوم.
٢ ـ آذنتنا ببينها أسماء، للحارث بن حلزة.
٣ ـ بسطت رابعةُ الحبلَ لنا، لسويد بن أبي كاهل.
٤ ـ أمن المنون وريبها تتوجع، لأبي ذؤيب الهذلي.
٥ ـ أإن بدلت من أهلها وحوشا، لعبيد بن الأبرص.
٦ ـ يا دار عبلة بالجواء تكلمي، لعنترة.

هذه القصائد الستّ اختارها عبدالملك ثم أُرتج عليه ولم يعرف سابعة يضيفها إليها، وإذا بابنه سليمان، وكان يومئذ ولداً صغيراً، قد دخل عليه وهو يردد قصيدة أوس بن مغراء:

محمد خير من يمشي على قدم وصاحباه وعثمان بن عفانا

فتعصب لها عبدالملك وقال: مَغّروها، أي أدخلوا قصيدة ابن مغراء فيها.[٢١] وتبدو لي هذه الرواية ـ على رغم ما فيها من سمات مسرحية ـ غير مستبعدة، وخاصة حين نقرنها بروايات أخرى تشير إلى اهتمام عبدالملك برواية الشعر. وتأتي خطوة عبدالملك تالية لمحاولة قام بها معاوية من قبل، وهي أيضاً تستند إلى رواية أخرى للحرمازي، إلا أنّ الفرق بين المحاولتين أن عبدالملك هو الذي اضطلع باختيار القصائد بينما كلف معاوية الرواة القيام بذلك، وأن ما قرّ عليه الرأي أيام معاوية تضمن اثنتي عشرة قصيدة ولم يتجاوز عبدالملك سبعاً، ويشترك الاثنان في خمس قصائد هي: قصيدة عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة، وعبيد بن الأبرص، وسويد بن ابي كاهل، والثلاث الأول ظلت معتمدة في الاختيار النهائي الذي يُرَجّح أن حماداً الراوية قام به واستبقى عبيداً بقصيدة أخرى غير «أإن بدلت من أهلها وحوشاً» وأضيف إلى هذه الاربع ثلاث كنّ مضمنات في ما اختاره الرواة لمعاوية (لامرىء القيس وطرفة وزهير). ومع أن العدد النهائي الذي استقرت عليه تلك القصائد المختارة يمثل جهد الرواة أيام معاوية، فإن جهد عبدالملك ـ إن صحت الرواية ـ كان يحاول أن يتجاوز الوقوف الصارم عند الشعر الجاهلي ويقرن إليه بعض الشعر الإسلامي.

٢ ـ عبدالملك ومجالس الادب والنقد:

تتكاثر الروايات التي تصوّر مجالس عبدالملك مستنشداً الشعر أو منشداً أو طارحاً موضوعا يدور حوله الحوار، وأغلب مجالسه من هذا القبيل امتحان لأبنائه أو لأحد جلسائه أو لجماعة من أشراف الناس حضروا مجلسه. وكثيراً ما يكتفي باستحسان ما يسمع، أو يعقب على الآراء المختلفة برأيه الخاص.[٢٢] وتأتي هذه المجالس على غرار، حتى كأنّ أصلها رواية واحدة تكاثرت بالمقايسة. وهي لا تتعدى السؤال عن البيت (أو عن أربعة أبيات) ولكنها ـ على عكس الحال في القصائد السبع ـ لا تسأل عن القصيدة، وانما تسأل عن أحكم بيت وأشجع بيت وأصدق بيت وأكرم بيت وأفحش وأرقّ وامتن... أي لا تتجاوز السؤال عن البيت الذي يمثل منتهى الغاية في موضوع غالباً ما يكون أخلاقياً، وهي نزعة مناسبة لتربية أبنائه، إذ كثيراً ما كان هذا الحوار مقصوراً عليهم. ونادراً ما يصدر عبدالملك حكماً مجملاً على شاعر ما، كقوله موصياً أبناءه: «عليكم بشعر الأعشى فانه أخذ في كل فنّ فأحسن، ولم يمدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه، مع حلاوة شعره وكثرة مائه...[٢٣]

٢١. اختيار المنظوم والمنثور (نسخة المتحف البريطاني رقم ١٨٥٣٢)، الورقة، ٥٠/ أ.

٢٢. الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر (ت ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م)، حلية المحاضرة، تحقيق: جعفر الكتاني، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٧٩، ج١ ص٣٣٨، ٣٤٥، ٣٥٢، ٣٦٠، ٣٦١. وقارن الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) زهر الآداب وثمر الالباب، تحقيق: محمد علي البجاوي، القاهرة ١٩٦٩، في مجلدين، وقارن أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/١٩٦٧م)، الامالي، ٢ج، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٣ـ١٩٥٤، ج٢، ص١٠١.

٢٣. الحاتمي، حلية المحاضرة، ج١، ص٣٧٢.

إن سذاجة هذا الموقف النقديّ جملة - وهو موقف سيظل يستأثر باهتمام النقاد قروناً بعد عبدالملك - تجعل نسبة مثل هذه المجالس إليه محتملة لأنها لا تتنافى والمستوى النقدي العام في عصره. ولكن حتى لو قطعنا جازمين بأنها روايات منحولة وضعت للتسلية ونسبت إلى خليفةٍ لتنال نصيباً وافراً من التقدير، فـإن نسبتها إلى عبدالملك دون سواه من الخلفاء تعني ولا بدّ أن الذين وضعوها كانوا يميزونه بالميل إلى الشعر والاهتمام بروايته. ومن اللافت للنظر أن تلك الاسئلة تنصبُّ حول الموضوع الشعري كالحكمة والشجاعة والفخر والكرم والصدق، فاذا كانت موجهة إلى المبنى الشعري أو الصورة الشعرية: كحسن التقسيم أو براعة التشبيه فانها تنسب إلى غيره، وفي هذا ما يشير إلى عدم الخلط بين مستويين نقديين متفاوتين، وإذا كانت هي نماذج موضوعة فذلك يدل على دقة من نحلوها وادراكهم لمراحل التطّور النقدي.

ومما يرجح أنها رمز لحقيقة، ولم تكن في ذاتها واقعاً على هذا النحو الغزير، أنها تعميمية الطابع، وهذا الجانب فيها يتنافى والأخذ بالاعتدال في طبيعة الرجل نفسه. ثم إن عبدالملك في إحدى الروايات يقبل أن يعد بيتاً من الشعر اكرم بيت، وفي مجلس آخر يقبل أن تطلق هذه الصفة على بيت غيره، و«أكرم» أو «أغزل» أو «أصدق» أو ما أشبهها لا تقبل التعدّد لدى المفاضلة. وهذا نقص سها عنه جامعوها، ولم يدركوا أن واضعها لم يكن واحداً. كذلك تتنافى والدقة التي يبديها عبدالملك في نقده لما يسمعه من شعر. حقاً إن تعليقاته ليست جميعاً على نَسَقٍ واحد من الدقة، فبعضها ناشىء عن تجاوز الشاعر لأصول اللياقة في خطاب الملوك والخلفاء (مثل: أتصحوا أم فؤادك غير صاح، ومثل: خف القطين فراحوا منك أو بكروا، ومثل: لو شئت ساقكم إلّي قطينا، وقوله لجرير: جعلتني شرطياً.. الخ)[٢٤] ولكن بعضها الآخر يدلّ على موقف نقدي بالغ الارهاف: من ذلك أن عبدالملك لما سمع قول كثير:[٢٥]

فقلـت لهـا يـا عـزّ كـلّ مصيبـة إذا وطنت يوما لهـا النفس ذلّـت

قال: لو قال هذا في حرب لكان أشعر الناس. وإذا تخلصنا من قوله «أشعر الناس» - وهي لازمة رديئة علقت بالنقاد وأحكامهم على مرّ الزمن - ووضعنا موضعها «لو قال هذا البيت في حرب لجاء به في موضعه اللائق به» وهو ما يعنيه عبدالملك - لوجدنا حكمه غاية في الحصافة، فإن معنى المصيبة التي تُوَطّن لها النفس أقرب إلى تصوير الخسارة في الحرب لا في الحب. وأدقّ من هذا وأبين قوله حين سمع الراعي ينشد:

أخليفـةَ الرحمــن إنــا معشر حنفــاء نسجـد بكــرةً وأصيلا
عـرَبٌ نـرى للـه في أمـوالنـا حـقّ الزكــاة منــزلاً تنــزيلا

«ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلام».[٢٦] ففي هذا الحكم وضع عبدالملك بايجاز ودون تحليل خطّاً فاصلاً بين الخطابة والشعر (على ما في بيتي الراعي من جمال خطابي)

يتخلص من هذا كله أن الروايات منحت عبدالملك دوراً كبيراً في رواية الشعر وفي نقده، ونحن وإن كنا نقف موقف المتردد من قبول تلك الروايات على علاتها، فاننا نحسّ أنها تعبر عن حقيقة لا مجال لانكارها، وهي سعة اطلاعه ودقة بعض أحكامه في هذا المجال، بل لعل تلك الروايات خدّشت وجه تلك الحقيقة حين انحرفت بها إلى مجال من المران والتسلية أو الالغاز وطمست جوانب أكثر جدية وجدوى.

- ٣ -

وثمة ناحية ثالثة إلى جانب الفقه والشعر لا بد من الوقوف عندها لدى الحديث عن دور عبدالملك في

٢٤. المزرباني، أبو عبدالله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد على البجاوي، جمعية نشر الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٢٠١.
٢٥. المرزباني، الموشح، ص٢٣٣.
٢٦. المرزباني، الموشح، ص٢٤٩.

ثقافة عصره، ولعلها لم تكن لتتاح له لو لم يصبح خليفة، وتلك هي الحوار من خلال الرسائل بينه وبين بعض المفكرين في ذلك العصر. وربما كان حظّ هذه الرسائل من الموثوقية يشبه حظّ الروايات التي جعلته محوراً للشعر والنقد. ومرة أخرى أقول: إن اختيار عبدالملك لادارة هذا الحوار له مغزاه، ولا تكفي المعاصرة وحدها لاعتماد هذا الاختيار. على أنه إن كان عبدالملك يتفرد بين خلفاء بني أمية بنصيبه من الروايات الشعرية والنقدية، فإن هناك من ينازعه التميز في الرسائل الحوارية أعني بذلك عمر بن عبدالعزيز. وبين عبدالملك وعمر يتبلور شكل من أشكال الرسائل الجدلية ذات الطابع «العقائدي»، وينقسم الدارسون حولها في فريقين: فريق يرى أنها صحيحة النسبة إلى العصر الأموي، وفريق يرى أنها وليدة فترة متأخرة كثيراً.

ويتصل بعبدالملك منها رسالتان، في الأقل، فلنقف عند كل منهما وقفة موجزة:

١- بين عبدالملك والحسن البصري:

يقترن اسم الحسن البصري بالقول بالقدر، على نحو أو آخر، وقد افترقت الروايات حوله في هذا المجال فمنها ما ينكر نسبة القدر إليه، ومنها ما يرى أنه من مؤسسي هذا الاتجاه، ومنها ما يجعل القول بالقدر في حياته مرحلة عابرة، وأنه تخلّى عن ذلك من بعد، ولعلّ الاتجاه الثالث أقرب إلى التصديق من الاتجاهين السابقين. وإذا أخذنا به فيجب أن نقرر أن معنى القدر عند الحسن لم يتعد قوله: إن الشّر لا يمكن أن يصدر عن الله، ولم ينفذ من ذلك إلى مسألة خلق الافعال أو عدم خلقها[٢٧].

ومهما يكن من شيء فإن لدينا رسالة وجهها عبدالملك إلى الحسن حول هذه المسألة هذا نصها: «سلام عليك فاني أحمد إليك الله الذي لا اله الا هو. أما بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك في وصف القدر ما لم يبلغه مثله عن أحد ممن مضى، ولا يعلم أمير المؤمنين أن أحداً أدركه من الصحابة تكلّم به وفيه بالذي بلغ أمير المؤمنين عنك، وقد كان يعلم منك صلاحاً في حالك، وفضلاً في دينك، ودراية في الفقه وطلباً له وحرصاً عليه، ثم أنكر أمير المؤمنين هذا القول منك، فاكتب إليه بقولك في ذلك، والأمر الذي به تأخذ: أعن رواية عن أحدٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم عن رأي رأيته، أم عن أمر يعرف تصديقه في القرآن، فانا لم نسمع في هذا الكلام مجادلاً ولا ناطقاً قبلك، فحصل لأمير المؤمنين رأيك في ذلك وأوضحه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[٢٨]

ورسالة عبدالملك على بساطتها تصرّح بانه قبل أن يسمع حجة الحسن يرى في القول بالقدر مخالفة لما يتصوره من معنى الصلاح والفضل في الدين والدراية في الفقه، فكأنه يوحي للحسن البصري بانكار ما شاع عنه، ويطالبه بأن يبين كيف توصل إلى ذلك الموقف:

(١) هل لديه رواية عن أحد من الصحابة تؤيد موقفه (النقل)
(٢) هل هو رأي اجتهادي خاص لا مُتَعَلَّق له بروايةٍ (العقل)
(٣) هل في القرآن الكريم ما يستنتج منه مثل ذلك الرأي (النقل والعقل معاً).

إن ردّ الحسن الذي شغل كثيراً من الباحثين المحدثين، وخاصة المستشرقين، دراسة وتحليلاً، قد يكون موثقاً أو منحولاً، أو قد يكون شيئاً صغيراً في البداية لحقته إضافات قياسية وسعت منه حجماً، دون أن تبارح المحور الأول فيه (والفرض الثالث في نظري أقرب إلى التصديق)، ولكن الردّ في ذاته ليس ذا أهمية كبيرة في هذا المقام، وإن كان ذا أهمية خاصة عند البحث عن أصول القدر وعلاقة ذلك بالمعتزلة، فالرسالة التي تضمنت الردّ - إن صَحَّت كلها أو صحت نواتها - انما تعبر عن شخصية الحسن دون عبدالملك، وليس فيها ما يتعلق بعبدالملك سوى الشهادة له بأنه من أهل الخير: «إن أمير المؤمنين أصلحه

٢٧. احسان عباس، الحسن البصري، سيرته، وتعاليمه وآراؤه، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٢ ص١٦٤، وما بعدها.
٢٨. مجلة 'Oriens' ١٩٥٧ (رسالة الحسن البصري)، تحقيق وترجمة، هلموت ريتر.

الله ،أصبح في قليل من كثيرٍ مضوا من أهل الخير ، منظور اليهم ومعول عليهم ومقتدى بأعمالهم ».[٢٩] فاما سائر الرسالة فإنه يدور في شقين : الأول منهما إثبات نسبة الضلال إلى الإنسان بايراد آيات صريحة في ذلك ، مثل : ربنا إناّ أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »، ومثل : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس ؟ »، ومثل : «إنا هديناه إما شاكراً وإما كفوراً ».[٣٠] والشق الثاني تأويل ما قد يوحي بنسبة الاضلال إلى الله مثل : «وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله » والاذن التخلية ، فقد خلاّها والإيمان ، وبهذا تضع الرسالة المحاولات الأولى للتأويل الذي سار عليه المعتزلة ، كما تتيح المجال واسعاً لتفسير القرآن بالقرآن .

إذن أياً كان شأن رسالة الحسن البصري ، فإن حركة المراسلة بينه وبين عبدالملك تظل ناقصة ، لأناّ لا نعرف ماذا كان موقف عبدالملك حين قرأ الرسالة : هل اقتنع بها ؟ هل ردّ عليها ؟ وإذا كان قد فعل فماذا قال في رده ؟ إن الرواية تنقطع عند حد السؤال والجواب ، ولكن الشيء الذي يمكن أن يستنتج باطمئنان هو أن علاقة التقدير المتبادل بين عبدالملك والحسن لم تتغير ، ومن اللافت للنظر حقاً أن نجد الحسن لدى ثورة ابن الاشعث أيام عبدالملك يقف في صفِّ المناوئين لها ، رغم انضمام الكثيرين من القراء إليها .

٢ـ بين عبدالملك وعبدالله بن اباض :

وهنالك مراسلة ثانية يروى انها دارت بين عبدالملك وعبدالله بن اباض الذي أصبح يعد مؤسس الفرقة الاباضية ، والذي تنسب إليه بعض المصادر الاباضية أنه كان كثيراً ما يبدي النصائح لعبدالملك.[٣١] وليس لدينا نصّ ما كتب به عبدالملك ، وانما احتفظت المصادر الاباضية بجواب عبدالله إليه ، ويستفاد من هذا الجواب أن البادىء بالمراسلة هو عبدالله بن اباض نفسه ، وأنه كتب إلى عبدالملك رسالة فردّ عليه عبدالملك برسالة مع رجل اسمه سنان بن عاصم ، تقبّل فيها من ابن إياض ما جاء في رسالته من حضٍّ على طاعة الله واتباع أمره وسنة نبيه ، وأنكر عليه أشياء تتصل فيما يبدو بالائمة وخاصة بأمر عثمان ، ولهذا وضح له عبدالملك رأيه في عثمان ، وهو رأي من السهل تصوره حين نقرأ قول ابن إباض «لقد كان **كما ذكرت** من قَدَمٍ في الإسلام وعمل به » و « ذكرت أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ختنه ». وفي رسالة عبدالملك دفاع عن معاوية وأن الله «قام معه وعجل نظره وأفلج حجته وأظهره على عدوه بطلب دم عثمان » وفيها أيضاً تحذير لابن إباض من الغلو في الدين ، وتعريض بالخوارج وأنهم يغلون في دينهم ويفارقون أهل الإسلام وأنهم يتبعون غير سبيل المؤمنين ، وختم رسالته بطلب إلى ابن إباض أن يجيب عنها . فأعاد ابن إباض عليه تفصيل رأيه هو في عثمان في رسالة أخرى ، هي هذه الرسالة التي أوردتها المصادر الاباضية[٣٢] وفيها يقول : «ثم اني لم أذكر لك شيئاً من شأن عثمان والأئمة إلا والله يعلم أنه الحق ، وسأنزع لك من ذلك البينةَ من كتاب الله الذي أنزله على رسوله ، وساكتب لك في الذي كتبت به وأخبرك من خبر عثمان والذي طعناّ عليه فيه »، ثم يأخذ في رسالته بتصوير ما كان عليه حال الرسول من قيام بالفروض والأحكام واعمالٍ للحدود ، وكيف تلاه أبو بكر آخذاً بكتاب الله وسنة نبيه ،وكيف قام بعده عمر بن الخطاب «قوياً في الأمر شديداً على أهل النفاق » ثم عثمان «فعمل ما شاء الله بما يعرف أهل الإسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض ما شاء الله ، ثم أحدث بها أموراً لم يعمل بها صاحباه قبله » وعدّدَ ابن إباض ما أنكره «المؤمنون » على عثمان ، وأورد أشياء تتردد في المصادر الأخرى وأشياء انفرد ـ فيما وصل إليه اطلاعي ـ بايرادها : منها كثرةُ من نفاهم عثمان ، ومنها أنه تعدى

٢٩. Oriens, p. 70

٣٠. Oriens, p. 71

٣١. سالم بن حمد الحارثي العماني، العقود الفضية في أصول الاباضية، دار اليقظة العربية، ص: ١٢١.

٣٢. مؤلف مجهول، كشف الغمة عن جميع الأمة، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم: ٣٤٦، ص ٢٩٨؛ والعقود الفضية، ص ١٢٣.

في الصدقات (من غير أن يبين كيف كان ذلك) وأنه كان يضم كلَّ ضالةٍ إلى إبله، وأنه منع أهل البحرين وأهل عمان أن يبيعوا شيئاً من طعامهم حتى يباع طعام الامارة، إلى غير ذلك من تهم - بزعمه - .

وبعد ذلك تناول ابن إباض في ردّه كل ما أورده عبدالملك مسألة مسألة وأجابه عن كل واحدة، وختم رسالته بقوله: واكتب إليَّ إن استطعت بجواب كتابي».

ومن الطبيعي - اتساقاً مع ما يعتقده ابن إباض - أن يخاطب عبدالملك باسمه مجرداً وأن لا ينعته بـ «أمير المؤمنين» وأن يردّ عليه تهمة الغلو في الدين - إذ الغلو في الدين أن يقال فيه غير الحق، وعبدالملك باتباعه عثمان والائمة من بعده - وقد اتبعوا أهواءهم وتبعهم عبدالملك عليها - هو من الذين قالوا في الدين بغير الحق. ولكن هذه الشدة يقابلها اجتهاد في النصيحة، ودعوة إلى الاعتصام بحبل الله، وإلى القرآن، واتباع لما جاء من الله، واتخاذ القرآن حجةً يوم القيامة، ويقول له في درج ذلك: «ولا تسند دينك إلى رجال يتمنون ويريدون، ويستدرجون من حيث لا يعلمون، فإن ملاك الأعمال بخواتيمها».[٣٣] ونستطيع القول إن عبدالله بن إباض غير يائس أبداً من اهتداء عبدالملك، «فإن الله قادر أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة».

وهناك رسالة أخرى إلى ابن إباض تتحدث عن علي وفضله وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وورود ردّ ابن إباض عليها في كتاب «كشف الغمة»[٣٤] تالياً لردّه على رسالة عبدالملك، جعل بعض الدارسين يظنّ أنّ هذه المراسلة دارت بين عبدالملك وابن إباض، ولكن قرائن الاحوال تقتضي استبعاد ذلك، لأن الرسالة الثانية تعني نقضاً لكثير مما جاء في الاولى، وخاصة في الدفاع عن معاوية وعن طلبه بدم عثمان، ولا يعْقَل أن تصدر الرسالتان عن شخص واحد، كما لا يعقل أن تصدر الثانية عن خليفة أموي.

وباستبعاد هذه الرسالة تظلّ لدينا رسالتان (وربما تكشف الايام عن غيرهما) إحداهما التي وصلت إلى الحسن البصري، والأخرى التي أرسلت إلى ابن إباض، وهما معاً تصوّران إفساح المجال للحوار الفكري، وفيهما دلالة على فضيلة القلم والإيمان بها.

فاذا تذكرنا الدور الفقهي والدور الأدبي النقدي الذي كان محوره عبدالملك أيضاً وجدنا أنفسنا إزاء خليفة متميز في هذه النواحي، أماّ إلى أيّ مدى اتسع تأثيره في هذه النواحي وفي غيرها، فأمر تصعب الاجابة عليه، ولكنّا على اية حال نستطيع أن نتلمس هنا مرحلةً أولى من نشاط فكري بتشجيع من رأس الدولة ومشاركته، في دور مبكر من حياة الدولة الأموية.

٣٣. كشف الغمة، ص ٣٠٢ (وفيه: ولا تشد دينك إلى الرجال فيمنون ويرتدون).
٣٤. كشف الغمة، ص ٣٠٦.